عندما يستيقظ الخريف

قصة بقلم خالد الشريقي

(يا اهلها ... ويا طالباتها .. لا تؤمنوا بآخر خيط من قصتي .. اني اكذب عليكم ..)

انها على يقين بانه يعرف عدم رغبتها في التدخين ، ومع ذلك فقد قدم لها احدى سجائره حين هم بأن يدخل غرفته، وكادت ترفضها لولا انه قال:

ـ انا في غرفتي عندما تريدين اشعالها .

ورأت في عينيه الاصرار ، وشيئا آخر كان يتراقص امامها لم تدركه فمدت اليه يدها المعروقة ، وتناولت السيجارة ، ودخل غرفته . كان ابوه قد ذهب لينام ، وامه راحت لتحضر لها فنجان الشاي ، فبقيت معه في الصالون الذي اعتادت ان تسهر فيه بعض لياليها مع اهله . وفي ذلك الوقت قدم لها السيجارة، وصفق الباب وراءه .

ولم تنتظر طويلا ، بل دخلت غرفتها بعد ان شربت فنجان الشاي . وقالت لامه ان رأسها يؤلمها . ووضعت السيجارة بقربها على الطاولة . لم يكن رأسها يؤلمها كما ادعت . انما شعرت برغبة ملحة في الجلوس لافكارها ، ونزلت في فراشها .

ـ انا في غرفتي عندما تريدين اشعالها .

تمنت لو قال اكثر من ذلك ، اذن لاستطاعت ان تفهم شيئا من مراميه. وتمنته لو لم يدخل غرفته في ذلك الوقت ، فربما استطاعت ان تقرأ في عينيه الفكرة التي تدور في رأسه ان كان يقصد شيئا .

انه يريدها ان تذهب اليه في هذا الوقت من الليل بعد ان نام جميع اهله ليشعل لها سيجارة لا ترغب في تدخينها . هل تستطيع ان تقنع نفسها بهذه الفكرة ؟.

وتململت في سريرها ..

لقد اعتادت ان تغفو في مثل هذه الساعة . فاطبقت جفنيها ... ولكن سرعان ما انتابتها رعشة خفيفة .. لن تستطيع النوم قبل ان تحل هذه العقدة ... هل تذهب اليه لتسأله ماذا يقصد ؟.

وتململت مرة اخرى ...

صباح هذا اليوم قالت لها امه :

ـ سيذهب غدا يا سميرة لانتهاء اجازته ، هل ترين كيف مضت هذه المدة سريعا ؟

انها لا تنكر بأن هذه الايام الاربعة مضت سراعا . لقد كانت رشيقة ممراحة على غير عادتها . لقد شعرت بذلك الليله التي قدم فيها . وكانت تعد الساعات التي تقضيها في المدرسة مع طالباتها ، لتذهب بعدها الى البيت حيث تجده مع اهله يضاحك اخواته . وكان يبتسم لها ، ويصافحها بحرارة ، ويجلس معها احيانا ليحدثها عن ارض الحدود التي يعيش فيها ، والليالي الضاحكة التي يسهرها مع رفاقه الجنود ، وهي تصغي اليه بلهفة . ربما لم تتابع كلماته احيانا ، بل كان خيط ـ لا تراه ـ يربط عينيها بشفتيه اللتين تتحركان بآلية خاصة تتمنى معها ان لا يسكت .

وقد تساءلت عن سر اهتمامها به. بل لقد عجبت من نفسها عندما نهضت مسرعة من فراشها بعد منتصف الليل على اثر ضجة في البيت عرفت منها انه قدم باجازة الى اهله . ووقفت امام مرآتها تصلح شعرها ، وتمسح عن عينيها اثر النوم ، وتفتح الباب لتدخل الغرفة التي التف اهله فيها حوله فرحين لقدومه ، وهو بلباسه العسكري ممددا فوق الكرسي تعبا ، لا يكاد يتكلم . ومدت له يدها :

ـ اهلا وسهلا ... الحمدلله على السلامة .

ونظر اليها دهشا ، انه لا يعرفها . وكاد يتساءل من تكون لولا ان قالت امه :

ـ انها المعلمة سميرة قد استأجرت احدى غرفنا .

وَخَاضَ أمّكَ في الصقيعِ ، خَاضَ أُمّكَ في الصقيعْ ،
والرّوثُ يَملأُ أنفها والخوفُ ، بالغَثَيانِ والنَفَسِ الثقيلْ
وسَعادةُ البيكِ الخليعْ
في داره ، تلكَ الكبيرَه
لصقَ الوجاقِ يَعَضّ من شِبَعٍ سريرَه .
... وَكَليلَةَ الأيتَامْ
في يومِ عيدْ
كانت لنا احلامْ
من مقلعِ الآلامْ
قُدّتْ ، ومن شَفَتي وَريدْ
يَستَنزِفُ الدّمَ ، والنّشيدْ
ما جَفّ بعد عليهما .
لكنّني ـ وبرغم ذلك يا بُنَيّ ،
رغمَ ارتكاضي في طريقْ
جوعي . . طريقِ شجيرةِ التّينِ اللّعينْ
مازلت أؤمنُ بعضَ حينْ
مازلتُ أؤمنُ بالسعادة بعض حينْ

هنري صعب الخوري

ونظر اليها طويلا ، بل لقد ابتسم لها وكأنه سر لرؤياها . وبقيت معه عشر دقائق ، ثم اعتذرت ودخلت غرفتها .

لم نهضت من فراشها في تلك الساعة من الليل ؟ الم يكن باستطاعتها الانتظار حتى يطلع الصباح فتسلم عليه ؟.

كانت بها رغبة ملحة لان تراه امامها رغم انها رأته كثيرا في صوره عندما تجلس اليها امه لتحدثها عنه قبل ان يصبح عسكريا ، وعن حيانه التي وجدت فيها شيئا تبحث عنه ، حتى تمنته مخلصة ان يأتي لتشاهده عن كثب .

وها هو قد اتى ، ورأته ، فهل اشبعت فضولها ، وهل هذا فضول منهـا ؟.

حتى انها لتذكر يوم سألت اخته عما اذا كان يحب فتاة ما ، فأنكرت اخته معرفتها لذلك لانها لم تعتد الوقوف على شيء من اسراره .

وهي تذكر ايضا فرحها الذي تشارك فيه اهله عندما كان يبعث اليهم برسائله ، فتقرأها بدورها ، وتتمنى لو يكتب لها . حتى انها فكرت بأن تكتب له ،وشجعتها على ذلك اخته . ولكنها لم تفعل .

وكثيرا ما دخلت غرفته ، وعبثت بكتبه ، لتنتقي منها كتابا تقرأه في وحدتها ، او كأنها تبحث بين ملفاته واوراقه عن شيء لا تدركه . بل لقد تساءلت مرارا عنسبب ميلها له، وحركاتها العفوية اذا ما ذكر امامها فأقرت ، او ربما اوهمت نفسها بانها اكتسبت من اهله شعورهم نحوه ، فقد احبتهم ، ورأت فيهم اهلها البعيدين عنها .

انها لتشكر الظروف التي عرفتها بامه . بل لتشكر ام سليم التي ذهبت بها اليها لتسألها عما اذا كانت تؤجرها احدى غرف منزلها الكبير.

لقد عاشت معهم حياة هادئة ، لا تختلف كثيرا عن حياتها مع اهلها في دمشق ، وكان البيت متسعا، لا يوجد فيه سوى ابويه واختيه وصورته الكبيرة المعلقة على الحائط ، حتى لقد كتبت لاهلها تقول بانها عثرت على اناس طيبين استأجرت في بيتهم غرفة مفروشة . ولم تنس ان تذكر لهم في رسالتها (ليس في البيت من ابن لهذه العائلة) . ولاول مرة في حياتها شعرت بأنها تكذب .

ان اهلها يثقون بها ، والا لما تركوها تسكن مدينة لا تعرف فيها احدا ، كما ان لها ايضا كل الثقة في نفسها . فهي مستعدة لدخول أي مجتمع كان دون ان يستطيع انسان ما الحديث عنها بشيء تسمعه يقال عن زميلاتها في التعليم .

هي تعرف ان الواحدة منهن تحب اكثر من واحد ، وتتفنى بهذا الحب ، اما هي فلا تجد لها في هذا الحديث اي مجال ، لانها لم تعرف الحب في حياتها . حتى ان خديجة قالت لها مرة :

ـ امن المعقول ان احدا ما لا تحبينه يا سميرة ؟

واقسمت لها بصحة كلامها . فهي لم تكذب عندما قالت انها لم تحب بعد . كانت صادقة كل الصدق،فقد قضت حياتها بين دفات الكتب دون ان تشغل نفسها بما يشغل زميلاتها في الجامعة في الوقت الذي كانت فيه طالبة جامعية . حتى وعندما انهت دراستها في كلية الآداب ، واصبحت معلمه ، لم تكتف بذلك ، بل انتسبت لفرع الحقوق .

وتململت في سريرها ...

لم تتعب نفسها بهذا الشكل . التسد الفراغ في حياتها ... وهـل في حياتها فراغ ؟.

ربما تساءلت ذلك اكثر من مرة . فما نوع هذا الفراغ اذن ؟ الانها لم تحب ... الا يكفيها ان تحب اهلها ، وكتبها التي تعيش معها ؟ . قد لا تنكر بأنها ستحب الرجل الذي يتقدم لخطبتها . ربما ستحبه ولو كان بأي شكل ، فيكفي انه اختارها من بين الكثيرات . انها تريد ان يكون هذا اليوم قريبا ، فلم تعد صغيرة ، لقد تجاوزت الثلاثين من عمرها ، واكثر رفيقاتها بل وبعض طالباتها رزقن باولاد .

حتى انها تساءلت فيإحدى المرات عنسبب عزوفهم عنها. لم تكن قبيحة، انها اجمل من نعمت ـ زميلتها في التعليم ـ التي يلحق بها اكثر من شاب كل يوم ، لكن نعمت هذه تضحك في طريقها بدون سبب ، وتلتفت وراءها كلما وصلت لمنعطف شارع ، وتتقبل اعجاب اي رجل بهـا ، وهي مستعدة لان تسير برفقة أي كان . وهي لا تفعل ذلك ، من المحال ان تلتفت وراءها ، اوتسير برفقة انسان لا تعرفه .

ولكن هل دعاها احد لتسير معه ؟

لم تكن لتفكر بالحب ، كانت حياتها لا تتسع لغير الدراسة ، وعندما اصبحت معلمة ثانوية اختاروا لها هذا البلد ، فعاشت اوقاتها مع طالباتها ، ونظمت لهن ساعات فراغهن . وكانت سعيدة باحترامهن لها ، فلم تكن تسمح لواحدة منهن بالمزاح معها ، وكانت السبب في طرد احداهن من المدرسة لانها رأتها تقرأ رسالة من حبيب لها في الصف . وثارت ، وكادت تنفجر عندما وجدتها تحمل عبارات حب فاضحة ارتعشت لها كل خلية من جسمها ، وصرخت بها ، وكادت تضربها ، لم تتصور ان فتاة لم تتم تعليمها وتكون عاشقة ، لم تعتقد ان واحدة من هذه المئات تعرف الحب .

ومر امامها خاطر سريع ، ما لبثت ان بددته ، ما المانع في ان تكون هذه الرسالة موجهة اليها من واحد ما ؟ .

وشعرت انها ظلمت هذه الطالبة عندما طالبت بطردها ، رغم ان اكثر المعلمات لم يؤيدنها ، حتى ان واحدة منهن قالت بجرأة :

ـ وما يمنع صبية منهن في ان تحب ؟.

وكادت تمر هذه الجملة عليها بسلام ، لولا اضافت اليها تلك المعلمة هامسة :

ـ كلنا عاشقات ...

وارادت ان تصرخ ، وان تصرخ ، وان تكذبها ، وشعرت انها أهينت . وهذا ما دفعها للتمسك بطلبها في طرد الطالبة العاشقة من المدرسة .

لو انها تأتي اليها الآن اذن لاعتذرت منها، وربما سعت فيإعادتها للمدرسة، فهي تذكر ان احداهن قالت لها :

ـ من يحب يعذر لتصرفاته .

ولا تعرف كيف تكون تصرفات المحب ، ترى اتختلف عن تصرفات من

صدر حديثا عن دار الآداب

قناديل اشبيليه

مجموعة قصص رائعة للقصاص السوري المعروف

الدكتور عبد السلام العجيلي

قصص انسانية عميقة ذات جو سحري عجيب

ثمن النسخة ١٥٠ قرشا لبنانيا او ما يعادلها

تطلب من دار الآداب ـ بيروت ص. ب. ٤١٢٣

لا يحب ؟ وهل عاداتها تختلف عن نعمت ، وغيرها ممن يحب ؟

ان هذه رسبت مرة في صفها عندما كانت طالبه جامعيه ، وما من مرة رأتها الاضاحكة مرحة ، كما انها تمازح اكثر الطالبات ، وتغني معظم اوقاتها ، وتذهب دائما للنزهة ، وتقوم باعمال كثيرة .

اما هي فكان لها في كل عام كتب مدرسية جديدة ، ولم تشعر ان بها ميلا للغناء ، او انها تضحك كثيرا او تمازح الطالبات ، حتى انها لا تذهب للنزهة الا بعد الحاح زميلاتها فمعظم فراغها تقضيه في غرفتها ، اما لتقرأ ، او لتنام الساعات الطوال .

وقد احبت اهله ، اذ استطاعت ان تعيش معهم كما في بيتها ، بل رأت في ابيه الطاعن في السن صديقا يحدثها في الشعر، ويزيح الضجر عنها بنكات تضحك لها بشكل لم تألفه في مدرستها .

وعندما جاء ، ارادت ان تضحك كثيرا ، وشعرت انها غدت حفيفة ، ورأت نفسها تمازح الطالبات ، وربما ارادت ان تغني ، بل ربما تمنت ان يطلبها لنزهة بحرية .

لكنه له يفعل .

ـ انا في غرفتي عندما تريدين اشعالها

تذكر مرة ان بائعة متجولة جاءت اليهم لتبيعهم اشياء نسائية كعادتها في بعض الشهور ـ كما فهمت من اخته ـ وما كادت هذه تراها حتى سألت اخته فرحة :

ـ اهذه هي الكنة ؟

وشعرت برغبة ملحة لان تبتسم ، بل ربما ارادت ان تقبل هذه البائعة، ونظرت الى اخته وكل خلية في جسدها تتراقص ، كأن نشوة غريبة تغمرها لم تعهدها من قبل ، وقالت لها اخته بعد ان ذهبت البائعة :

ـ ما رأيك ياسميرة لو تتحقق هذه الفكرة ؟

وابتسمت في داخلها ، ولم تجب اخته ، انما انزوت مع نفسها تحاول ان تخجل ، امن المعقول ان تتحقق هذه الفكرة وهي على يقين بانها تزيده اكثر من سبع سنين ، ومن يضمن لها ان اخته صادقة في قولها ؟

ومن يومها شعرت انها تتقرب من اهله اكثر من اللازم ، وانها تحدثهم عن شوقها لرؤيته ، وارادت من صميمها ان تعيد اخته حديثها عن فكرة البائعة .

ـ انا في غرفتي عندما تريدين اشعالها

وتململت في سريرها ، وازاحت الغطاء عن انفها ، واخرجت يدها ، كأنها لم تعد بحاجة لان تنام ، واستلقت على صدرها ، وشعرت انها تريد ان تضغط بجسمها على الفراش ، وان شيئا ما يتوغل في اعماقها لم تشعر به من قبل ، وحاولت ان تبعد هذه الافكار عنها ، فأعادت استلقاءها على ظهرها مكرهه ،واصطدمت يدها بالطاولة الملاصقة لسريرها ، فتحسستها برفق ، وشعرت بشيء تستقر عليه يدها ، وتناولت السيجارة .

ـ انا في غرفتي عندما تريدين اشعالها

غدا في مثل هذا الوقت لن يكون في غرفته ، سيسافر صباحا كما قالت لها امه ، ولا تعلم متى ستراه .

ومسحت وجهها المعروف ، واحست انها تكاد تختنق ، وان شيئا يطوق جسمها ، وانها بحاجة لهواء جديد .

ونهضت الى نافذتها المطلة على الشارع ، ووقفت تملأ رئتيها هواء نقيا ، وارادت ان تتمشى في ارض الغرفة ، ولم تشعر بنفسها عندما وقفت امام المرآة الصغيرة المثبتة على الحائط لتتأمل وجهها الصغير على ضوء مصباح الشارع .

وتطاولت على رؤوس اصابعها ، لترى في صدرها شيئا لم يثر انتباهها من قبل ، ففطته بيديها ، وضغطت عليه بشدة ، وارادت ان تلتصق بالحائط ، بل ارادت ان تفعل شيئا اكثر .

وانحنت لتلتقط السيجارة التي فلتت من اصابعها ...

ـ انا في غرفتي عندما تريدين اشعالها

وارادت ان تشعلها ، وان تعب منها نفسا عميقا ، كما يفعل هو عندما يفكر ، وكانت على يقين من انه ليس في غرفتها كبريت .

وتسللت الى الباب، وفتحته على مهل ، وكأنها لم تدهش عندما وجدت غرفته مضاءة ، بل ربما كانت متأكدة انه يمسك بالكبريت ، وينتظرها .

هل تذهب اليه ؟.

ماذا لو شعر بها اهله ؟ هل تقول لهم انها ذهبت اليه لتشعل سيجارة وهم يعرفون عزوفها عن التدخين ، وكادت تتراجع لولا ان شدها خيط من ماضيها الى الباب ، وتأكدت انه سيبقى بانتظارها طوال الليل ، لا لشيء ، الا ليشعل لها السيجارة ، والا لما قدمها لها ، وقال :

ـ انا في غرفتي عندما تريدين اشعالها

وتقدمت على رؤوس اصابعها ، ووقفت امام باب غرفته ، وشعرت بضربات قلبها ، ومدت يدها لتمسح شعرها المتهدل .

هل تقرع الباب ؟ ربما شعر بها اهله ، اذن ستدخل دون استئذان . وقبضت على الاكره ، وادارتها...

كان ممددا على سريره يقرأ كأنه لم يشعر بها ، ووقفت بالباب ، واحست بحرارة وجهها ، وبشيء يضطرب بين جنبيها ، وارادت ان تهرب، وان تلوم نفسها ، بل ربما ارادت ان تبكي

لكنها لم تفعل .

ورأته ينظر اليها وفي عينيه تتراقص ابتسامة لم تستطع تفسيرها ، وكانت ترقب يده التي امتدت وتناولت علبة الكبريت ...

ـ انا في غرفتي عندما تريدين اشعالها

وشعرت برجليها تتقدمان منه، وبأن يدا اخرى تلف خصرها وتضغط عليه بشدة ، وان شيئا قد جمد في عينيها ، وان رأسها يكاد يتدلى فوق كتفيها ، وانها تكاد تسقط على الارض . ومع كل ذلك فقد كانت متأكدة من ان السيجارة لم تقع من بين شفتيها المرتعشتين ...

خالد الشريقي